وهيب نديم وهبة

بَيْت ٱلْعُصْفُور

إصدار:

دار الربيع للنشر والتوزيع

13 القومية. الزقازيق – الشرقية. مصر

المدير العام: محمد الديب

springsite@gmail.com

Phone: 0021064063063

2024

ISBN: 978-977-94-9768-6

وهيب نديم وهبة

Waheeb Nadeem Wahbah

بَيْت ٱلْعُصْفُور

The sparrow's House

تصميم الرسومات

هيام يوسف مصطفى

سنة الإصدار

2024

بَيْت ٱلْعُصْفُور

إِنَّـهَا حِكَايَةٌ كَكُلِّ حِكَايَاتِ ٱلْأَمِيرَاتِ ٱللَّوَاتِي يَظْهَرْنَ وَيَخْتَفِينَ فِي لَحَظَاتٍ، أَوْ أُولَائِكَ ٱللَّوَاتِي يَنْتَظِرْنَ فَارِسَهُنَّ ٱلْعَائِدَ إِلَيْهِنَّ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْبَعِيدَةِ.

كَانَتْ أَمِيرَتِي ٱلصَّغِيرَةُ فِي بِدَايَةِ ٱلْحِكَايَةِ تُحَاوِلُ كِـتْمَانَ ٱلْحُزْنِ وَبَعْضِ ٱلدَّمْعِ وَهِيَ تَقُولُ: ...

لٰكِنَّ صَدِيقِي ٱلْعُصْفُورَ، جَعَلَ عَقْلِي شَارِدًا وَأَفْكَارِي مُشَتَّتَةً، وَحْدَهَا ٱلْعَيْنُ تُبْصِرُ حِينَ

عَادَ هٰذَا ٱلْمَسَاءَ إِلَى بَيْتِهِ ٱلْمَحْفُورِ بَيْنَ حَجَرَيْنِ فِي أَعْلَى ٱلْبِنَايَةِ ٱلْحَجَرِيَّةِ وَلَمْ يَجِدْ صِغَارَهُ دَاخِلَ ٱلْعِشِّ.

قَالَتِ ٱلْأَمِيرَةُ: "لَمْ تَسْمَعْنِي، كُنْتُ فِي بِدَايَةِ ٱلْحِكَايَةِ."

نَهَضْتُ مِنْ مَكَانِي وَرَكَضْتُ بِكُلِّ قُوَايَ ٱلْجَسَدِيَّةِ، يُسْبِقُ خُطُوَاتِي بَصَرِي، بَصَرِي ٱلَّذِي يُلَاحِقُ ٱلْعُصْفُورَ وَهُوَ يَدُورُ وَيَدُورُ وَيَعْلُو وَيَعْلُو وَيَحُومُ فِي ٱلْفَضَاءِ، يَحُومُ فِي نَفْسِ ٱلْمَكَانِ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ نَفْسَ ٱلسُّؤَالِ: "أَيْنَ ٱلصِّغَارُ؟"

تَرْكُضُ خَلْفِي ٱلْأَمِيرَةُ وَبِصَوْتِهَا ٱلْمُتَقَطِّعِ تَسْأَلُنِي: "هَلْ تَفْهَمُ لُغَةَ ٱلطُّيُورِ؟"

رَافَقَتْنِي ٱبْتِسَامَةٌ خَفِيفَةٌ بِرَغْمِ قَلَقِي وَخَوْفِي عَلَى مَصِيرِ ٱلصِّغَارِ وَأَنَا أَقُولُ لَهَا:

"لَقَدْ وَهَبَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱلنَّبِيَّ سُلَيْمَانَ ٱلْحَكِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، دُونَ سَائِرِ ٱلْبَشَرِ وَٱلْأَنْبِيَاءِ، ٱلْمَمْلَكَةَ ٱلْوَاسِعَةَ وَٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي لَا تَحُدُّهُ حُدُودٌ. لَقَدْ سَخَّرَ ٱللَّهُ لَهُ كُلَّ ٱلْكَائِنَاتِ وَٱلْجِنَّ وَٱلرِّيَاحَ وَمَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ، وَهُوَ وَحْدَهُ يَفْهَمُ لُغَةَ ٱلطُّيُورِ."

أَلْأَمِيرَةُ: "أَنَا أَمِيرَةُ ٱلْحِكَايَاتِ أُخْبِرُكَ... وَقَدْ كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ جَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ بَعْدَمَا دَعَا ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ قَائِلًا: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي. فَاسْتَجَابَ ٱللَّهُ دُعَاءَهُ وَأَعْطَاهُ ٱلْمُلْكَ ٱلْعَظِيمَ، وَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ٱلْعَظِيمِ بِسَاطُ ٱلرِّيحِ. أَمَّا بِسَاطُ سُلَيْمَانَ فَهُوَ شَيْءٌ

عَجِيبٌ، وَكَانَ ٱلْبِسَاطُ مِنَ ٱلْخَشَبِ يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ ٱلْمَمْلَكَةِ: ٱلْجُنُودُ وَٱلْخُيُولُ وَٱلْجِمَالُ وَٱلْخِيَامُ. وَكَانَ يَجْلِسُ أَحْيَانًا عَلَى بِسَاطِ سُلَيْمَانَ، عَنْ يَمِينِهِ ثَلَاثُمائَةِ أَلْفِ كُرْسِيٍّ، وَعَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ كُرْسِيٍّ. وَكَانَتْ تَأْتِي ٱلطُّيُورُ فَتَصُفُّ بِأَجْنِحَتِهَا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْبِسَاطِ ٱلْمُمْتَدِّ حَتَّى لَا يُؤْذِيَهَا حَرُّ ٱلشَّمْسِ، ثُمَّ يَرْتَفِعُ هٰذَا ٱلْبِسَاطُ ٱلْمُهِيبُ فِي أَجْوَاءِ ٱلسَّمَاءِ."

قُلْتُ: "لَا أَفْهَمُ لُغَةَ ٱلطُّيُورِ، وَلَا أَمْلِكُ بِسَاطَ ٱلرِّيحِ."

أَلْأَمِيرَةُ: "إِذًا، كَيْفَ فَهِمْتَ مَا حَدَثَ مَعَ ٱلْعُصْفُورِ؟"

أَقُولُ: "أَفْهَمُ ٱلْمَشْهَدَ جَيِّدًا (فَتْرَةَ صَمْتٍ) بِالْأَمْسِ شَاهَدْتُ ٱلْغُرَابَ يَحُومُ هُنَاكَ فِي نَفْسِ ٱلْمَكَانِ. رُبَّمَا عَبِثَ ٱلْغُرَابُ بِالْخَرَابِ وَخَطِفَ ٱلصِّغَارَ... رُبَّمَا..."

أَلْأَمِيرَةُ: "أَعْرِفُ حِكَايَةَ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مَعَ ٱلْـهُدْهُدِ. هَلْ تَعْرِفُ ٱلْحِكَايَةَ؟"

أَقُولُ: "نَعَمْ؛ أَنْتِ رُبَّمَا تَقْصُدِينَ حِكَايَةَ ٱلْجِنِّ ٱلَّذِي قَرَّرَ خَطْفَ عَرْشِ بِلْقِيسَ. قَالَ لِسُلَيْمَانَ ٱلْحَكِيمِ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَـقُومَ مِنْ مَقَامِكَ!

ثُمَّ قَالَ: أَلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ

بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ!"

أ

أَلْأَمِيرَةُ: "مِنْ أَيْنَ لَنَا مَا حَدَثَ؟ كَيْفَ نُعِيدُ

ٱلصِّغَارَ بِطَرْفَةِ عَيْنٍ إِلَى ٱلْعِشِّ؟"

أَقُولُ: "أَلْأَصْعَبُ فِي ٱعْتِقَادِي، مَا هُوَ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَخْطَفُونَ ٱلطُّيُورَ مِنْ نَسَائِمِ ٱلْغَابَاتِ وَحُرِّيَّةِ ٱلسَّمَاءِ، وَٱلْبَشَرُ ٱلْعَادِيُّونَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَلْقِ دُونَ ذَنْبٍ أَوْ جَرِيرَةٍ."

أَلْأَمِيرَةُ: "أَعْلَمُ مَا قَالَهُ ٱلْغُرَابُ عَنْ هُدْهُدِ سُلَيْمَانَ. شَاهَدَهُ يَرْحَلُ إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ بِرِفْقَةِ صَدِيقِهِ ٱلْـهُدْهُدِ ٱلْقَادِمِ مِنْ تِلْكَ ٱلْبِلَادِ، وَأَخْبَرَهُ صَدِيقُهُ عَنْ مُلْكِ بِلْقِيسَ وَجَمَالِ بِلَادِهَا. وَحِينَ وَصَلَا قَالَ صَدِيقُهُ ٱلْـهُدْهُدُ: "هَلْ تُبْصِرُ تِلْكَ ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلْـكَبِيرَةَ؟ هَلْ عِنْدَ سُلَيْمَانَ لُؤْلُؤَةٌ بِحَجْمِهَا؟"

فَقَالَ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ: "هٰذِهِ هِيَ لُؤْلُؤَةُ سُلَيْمَانَ ٱلَّتِي خَطِفَهَا عِفْرِيتُكُمْ مِنْ يَدِ ٱلْجِنِّيِّ ٱلَّذِي صَادَهَا وَلَنْ يَدَعَهَا خَزَائِنَ سُلَيْمَانَ. أَلْوَيْلُ لَكُمْ."

وَفَجْأَةً، بِلَمْحِ ٱلْبَصَرِ، هَبَّتْ رِيَاحٌ عَاتِيَةٌ ٱهْتَزَّتْ لَـهَا شُجَيْرَاتُ ٱلْمَكَانِ وَتَطَايَرَ ٱلْغُبَارُ نَحْوَ ٱلْبُيُوتِ ٱلْحَجَرِيَّةِ.

وَإِذَا ٱلْغُرَابُ وَٱلْعُصْفُورُ يَتَقَاتَلَانِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مَكَانِ ٱلْعِشِّ ٱلَّذِي كَانَ لِصِغَارِ ٱلْعُصْفُورِ.

أَلْأَمِيرَةُ: "لَوْ كَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هُنَا لَفَهِمَ حِوَارَهُمَا وَعَرَفَ كَيْفَ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ بَيْنَهُمَا."

أَقُولُ: "لَا أَمْلِكُ حِكْمَةَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لٰكِنَّ ٱلْقَاعِدَةَ تَقُولُ: أَلْمُجْرِمُ يَحُومُ دَائِمًا حَوْلَ مَكَانِ ٱلْجَرِيمَةِ. وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْعُصْفُورُ مُسْتَتِرًا، مُنْتَظِرًا عَوْدَةَ ٱلْخَاطِفِ ٱلَّذِي خَطِفَ ٱلصِّغَارَ."

تَقْتَرِبُ ٱلْأَمِيرَةُ مِنْ مَوْقِعِ ٱلْمَعْرَكَةِ بَيْنَ ٱلْغُرَابِ وَٱلْعُصْفُورِ، وَيَفِرُّ ٱلْعُصْفُورُ بَعِيدًا وَٱلْغُرَابُ يَحُومُ وَلَا يَتْرُكُ ٱلْمَكَانَ.

تَسْأَلُ ٱلْأَمِيرَةُ: "لِمَاذَا ٱلْغُرَابُ لَا يَفْزَعُ مِنِّي وَيُغَادِرُ كَالْعُصْفُورِ؟"

أَقُولُ: "مِنَ ٱلْغَرِيبِ وَٱلْمُثِيرِ لِلدَّهْشَةِ أَنَّ ٱلْغُرَابَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى وُجُوهِ ٱلْبَشَرِ، لَيْسَ ذٰلِكَ فَقَطْ بَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصَنِّفَ ٱلْبَشَرَ إِلَى بَشَرٍ جَيِّدٍ وَبَشَرٍ سَيِّئٍ."

أَلْأَمِيرَةُ: "تَـقُومُ ٱلْغُرْبَانُ بِقَتْلِ أَيِّ غُرَابٍ أُصِيبَ بِمَرَضٍ مُعْدٍ فَوْرًا حَتَّى لَا يَأْذَى وَحَتَّى لَا يَقُومَ بِنَقْلِ ٱلْعَدْوَى إِلَى بَاقِي ٱلْغُرْبَانِ، وَهٰذَا أَكْـبَرُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ ٱلْغُرَابَ أَذْكَى ٱلطُّيُورِ."

أَقُولُ: "أَلْمُهِمُّ، يَا عَزِيزَتِي ٱلْغَالِيَةَ، مَا تَعَلَّمَ مِنْهُ

ٱلْإِنْسَانُ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْحِكَايَةُ: أَلْغُرَابُ هُوَ مَنْ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ ٱلدَّفْنَ، وَهٰذِهِ تُعَدُّ إِحْدَى حَقَائِقَ غَرِيبَةٍ وَمُدْهِشَةٍ عَنِ ٱلْغُرَابِ. هُوَ مَنْ عَلَّمَ قَابِيلَ ٱبْنَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ حَيْثُ أَنَّهُ قَامَ بِدَفْنِ غُرَابٍ آخَرَ مَيِّتٍ أَمَامَ قَابِيلَ. مِنْ هُنَا تَعَلَّمَ ٱلْبَشَرُ كَيْفِيَّةَ دَفْنِ ٱلْمَوْتَى."

"إِسْمَعْنِي يَا صَدِيقِي،" قَالَتْهَا ٱلْأَمِيرَةُ بَعْدَ هٰذِهِ ٱلْحِوَارِيَّةِ ٱلَّتِي جَمَعَتْنِي بِهَا، "هَلْ تَظُنُّ أَنَّ ٱلْغُرَابَ سَيَسْتَوْطِنُ عِشَّ ٱلْعُصْفُورِ؟"

"صَدِيقَتِي ٱلأَمِيرَةَ، لَوْ تَعْلَمِينَ، لِلْغُرْبَانِ مَحَاكِمُ تَقُومُ مَجْمُوعَةُ ٱلْغُرْبَانِ فِي تِلْكَ ٱلْمَحَاكِمِ

بِمُحَاكَمَةِ ٱلْغُرَابِ ٱلْخَارِجِ عَنْ قَوَانِينِ ٱلْعَدَالَةِ ٱلْفِطْرِيَّةِ ٱلَّتِي خَلَقَهَا هٰذَا ٱلطَّائِرُ، حَيْثُ أَنَّ لِكُلِّ جَرِيمَةٍ يَقُومُ بِهَا أَحَدُ ٱلْغُرْبَانِ عُقُوبَةً خَاصَّةً تُنَفَّذُ فَوْرَ ٱتِّخَاذِ ٱلْقَرَارِ مِنْ قِبَلِ ٱلْجَمَاعَةِ."

أَلْأَمِيرَةُ: "لَوْ كَانَ ٱلْغُرَابُ هُوَ ٱلْعَابِثَ بِالْعِشِّ وَٱلْمَسْؤُولَ عَنِ ٱلْخَرَابِ ٱلَّذِي حَدَثَ وَخَطَفَ ٱلصِّغَارَ، مَا هِيَ ٱلْعُقُوبَةُ وَفْقَ عَدَالَةِ ٱلْغُرْبَانِ؟"

أَكْتُمُ أَنْفَاسِي بِكُلِّ صَبْرٍ وَأَقُولُ: "جَرِيمَةُ هَدَمِ ٱلْعِشِّ... تُلْزِمُ مَحْكَمَةُ ٱلْغُرْبَانِ هَادِمَ ٱلْعِشِّ بِأَنْ يَبْنِيَ عِشًّا بَدِيلًا لِصَاحِبِ ٱلْعِشِّ ٱلْمَهْدُومِ".

أَلْأَمِيرَةُ: "أَلشَّمْسُ تُفَكِّرُ بِالْمَغِيبِ وَٱلرِّيحُ تَهُبُّ خَفِيفَةً نَاعِمَةً وَٱلْعُصْفُورُ يَبْحَثُ دُونَ جَدْوَى. لَوْ نَسْتَطِيعُ تَـقْدِيمَ ٱلْعَوْنِ وَٱلْمُسَاعَدَةِ لَهُ. أَلَا تَعْتَقِدُ يَا صَدِيقِي، ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلاِنْتِظَارِ (تَصْمُتُ وَتَبْتَسِمُ ٱبْتِسَامَةً خَفِيفَةً وَتُتَابِعُ) أَوْ رُبَّمَا تَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلْغُرَابَ سَيُعِيدُ صِغَارَ ٱلْعَصَافِيرِ ٱلْمَخْطُوفَةِ لِلْعِشِّ؟"

أَقُولُ: "حَقًّا، تِلْكَ هِيَ ٱلْمُهِمَّةُ ٱلْعَادِلَةُ لِلْحَيَاةِ. كَـيْفَ نُقَدِّمُ ٱلْمُسَاعَدَةَ قَبْلَ حُلُولِ ٱلظَّلَامِ. يَحُومُ ٱلْعُصْفُورُ مَا بَيْنَ ٱلشَّجَرَةِ وَٱلْبِنَايَةِ ٱلْحَجَرِيَّةِ آلَافَ ٱلْمَرَّاتِ. نَصْنَعُ لِلْعُصْفُورِ بَيْتًا

وَنُعَلِّقُ ٱلْبَيْتَ ٱلْمَصْنُوعَ مِنَ ٱلْخَشَبِ ٱلرَّقِيقِ وَٱلْمَدْهُونِ بِعِنَايَةٍ لِجَلْبِ نَظَرَاتِهِ ٱلَّتِي تُرَاقِبُ عَنْ كَثَبٍ كُلَّ حَرَكَةٍ وَصَوْتٍ وَخَيَالٍ عَابِرٍ..."

(أَلْأَمِيرَةُ مُقَاطِعَةٌ): "نَصْنَعُ لَهُ سِجْنًا."

أَقُولُ: "لَا، يَا صَدِيقَتِي ٱلْأَمِيرَةَ، نَصْنَعُ بَيْتًا بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِيَدْخُلَ وَيَخْرُجَ بِحُرِّيَّةٍ وَنَضَعُ ٱلْمَاءَ وَٱلطَّعَامَ كَيْ يَسْتَأْنِسَ بِالْبَيْتِ وَبِنَا."

أَلْأَمِيرَةُ: "أَلشَّمْسُ تَمِيلُ لِلْمَغِيبِ، لَيْسَ لِصَالِحِنَا ٱلْوَقْتُ. هَيَّا نَعْمَلُ وَنَعْمَلُ وَنَجْمَعُ كُلَّ مَا نَسْتَطِيعُ لِصِنَاعَةِ ٱلْبَيْتِ."

أَلْمَوْتُ وَٱلْحَيَاةُ بِيَدِ ٱلْخَالِقِ وَحْدَهُ مَالِكُ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ.

وَهُنَا سَمِعَ أَحَدُ ٱلْجِيرَانِ ٱلْـكَلَامَ ٱلْمُتَنَاثِرَ فِي فَضَاءِ ٱللهِ وَقَالَ: "تَعَالَوْا... تَعَالَوْا... عِنْدِي بَعْضُ ٱلْأَدَوَاتِ وَٱلْأَخْشَابِ وَٱلدِّهَانِ، كُـنْتُ فِي زَمَنِ ٱلشَّبَابِ أَمْلِكُ وَرْشَةً صِنَاعِيَّةً صَغِيرَةً."

لَمْ أُصَدِّقْ مَا أَسْمَعُ. هَرَعَتِ ٱلْأَمِيرَةُ بِاتِّجَاهِ ٱلرَّجُلِ قَبْلِي، سَبَقَتْنِي بِخُـطُوَاتٍ وَخُـطُوَاتٍ وَهِيَ تَقُولُ: "تَعَالَ قَبْلَ مَغِيبِ ٱلشَّمْسِ نَصْنَعُ ٱلْبَيْتَ وَنُعَلِّقُهُ عَلَى جِدَارِ ٱلْبِنَايَةِ ٱلْعَالِيَةِ."

قُلْتُ لِلْأَمِيرَةِ: "نَحْتَاجُ إِلَى ٱلسُّلَّمِ ٱلطَّوِيلِ

لِنَصِلَ لِأَعَالِي ٱلْبِنَايَةِ."

ٱلرَّجُلُ: "لَا تَقْلَقْ، عِنْدِي سُلَّمٌ."

وَنَدْخُلُ ٱلْوَرْشَةَ وَنَعْمَلُ مَعًا، حَتَّى تَمَّتْ

صِنَاعَةُ ٱلْبَيْتِ وَظَهَرَ بِهٰذَا ٱلشَّكْلِ ٱلْجَمِيلِ.

"أَلْآنَ نَحْنُ عَلَى أَتَمِّ ٱلِاسْتِعْدَادِ لِتَعْلِيقِ ٱلْبَيْتِ

عَالِيًا. أَلسُّلَّمُ ٱلطَّوِيلُ مَعَنَا وَٱلْقِطْعَةُ ٱلْحَدِيدِيَّةُ

ٱلَّتِي سَتُغَرَّزُ بَيْنَ ٱلْحَجَرَيْنِ وَٱلْحَبْلُ ٱلصَّغِيرُ لِرَبْطِ ٱلْبَيْتِ مِنِ ٱهْتِزَازِ ٱلرِّيَاحِ".

قَالَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي قَامَ بِتَصْمِيمِ وَبِنَاءِ ٱلْبَيْتِ وَقُمْنَا بِمُسَاعَدَتِهِ هٰذَا ٱلْكَلَامَ وَهُوَ يَسِيرُ وَٱلسُّلَّمُ ٱلطَّوِيلُ مَحْمُولًا عَلَى كَتِفِهِ وَقِطْعَةُ ٱلْحَدِيدِ بِيَدِهِ، وَأَنَا مَعِي ٱلْحَبْلُ وَٱلْمِطْرَقَةُ وَٱلْأَمِيرَةُ تَسِيرُ خَلْفَنَا وَلَا تَكُفُّ عَنِ ٱلْأَسْئِلَةِ.

كَيْفَ أَتَي هٰذَا ٱلْجَارُ وَفِي ٱللَّحْظَةِ ٱلْمُنَاسِبَةِ؟ أَقُولُ لِنَفْسِي: "أَلْقَدْرُ يَكْتُبُ مَصَائِرَ كُلِّ ٱلْكَائِنَاتِ."

إِعْتَلَى ٱلرَّجُلُ دَرَجَاتِ ٱلسُّلَّمِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ وَٱلْأَمِيرَةُ تَحْمِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلْخَشَبِيَّ لِلْعُصْفُورِ. وَعِنْدَ ٱلدَّرَجَةِ ٱلثَّالِثَةِ أَوِ ٱلرَّابِعَةِ لِلسُّلَّمِ رَفَعَتِ ٱلْأَمِيرَةُ ٱلْيَدَيْنِ لِلْأَعْلَى وَتَنَاوَلَ مِنْهَا ٱلْبَيْتَ وَتَابَعَ ٱلصُّعُودَ وَأَنَا فِي ٱنْتِظَارِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ ٱلْعِشِّ ٱلْمَنْكُوبِ.

أَخْرَجَ قِطْعَةَ ٱلْحَدِيدِ مِنْ جَيْبِهِ ٱلْخَلْفِيِّ وَحَرَّرَ ٱلْحَبْلَ ٱلْمَرْبُوطَ عَلَى خَصْرِهِ حَتَّى وَصَلَ ٱلْأَرْضَ. قُمْتُ بِرَبْطِ ٱلْمِطْرَقَةِ وَكَانَ ٱلْبَيْتُ يَتَّكِئُ عَلَى أَعْلَى ٱلسُّلَّمِ. رَفَعَ ٱلْمِطْرَقَةَ وَدَقَّ ٱلْقِطْعَةَ ٱلْحَدِيدِيَّةَ حَتَّى تَمَّ تَثْبِيتُهَا بَيْنَ

حَجَرَيْنِ. عِنْدَهَا عَلَّقَ ٱلْبَيْتَ وَوَضَعَهُ دَاخِلَ ٱلْحَلْقَةِ، حَتَّى أَصْبَحَ ٱلْبَيْتُ مُعَلَّقًا أَمَامَ ٱلْجِدَارِ وَفِي ٱلْحَبْلِ ٱلصَّغِيرِ. تَمَّ ٱلرَّبْطُ بِقُوَّةٍ حَتَّى يَمْنَعَ ٱهْتِزَازَ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْخُرُوجَ مِنَ ٱلْحَلْقَةِ ٱلْحَدِيدِيَّةِ ٱلْمَعْقُوفَةِ.

حِينَ أَصْبَحَ ٱلْجَارُ ٱلطَّيِّبُ أَمَامِي وَٱلْمَسَاءُ يُعْلِنُ بِدَايَةَ ٱلْعَتَمَةِ. كَانَ ٱلْعُصْفُورُ مِنْ مَكَانِ مَا يُرَاقِبُ ٱلْمَشْهَدَ وَبِنَظْرَةٍ كُلُّهَا حَنَانٌ وَمَحَبَّةٌ تَسَعُ ٱلدُّنْيَا، وَدَمْعَةٌ سَاخِنَةٌ فَرَّتْ مِنْ أَعْيُنِنَا مِنَ ٱلْفَرَحِ عِنْدَمَا عَادَ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْمَصْنُوعِ مِنَ ٱلْخَشَبِ.

قُلْتُ لِلْجَارِ ٱلطَّيِّبِ: "أَلْقَدْرُ جَمَعَنَا لِغَايَةٍ نَبِيلَةٍ.

هَلْ تَعْرِفُ قِصَّةَ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مَعَ

ٱلْعَنْقَاءِ وَٱلْقَدْرِ؟"

قَالَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّيِّبُ: "لاَ، لَمْ أَسْمَعْ بِـهَا. مَاذَا تَرْوِي ٱلْحِكَايَةُ؟"

قُلْتُ: "قِصَّةُ طَائِرِ ٱلْعَنْقَاءِ وَسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. تَدُورُ أَحْدَاثُ هٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ حَوْلَ طَائِرٍ يُدْعَى طَائِرَ ٱلْعَنْقَاءِ، كَانَتْ دَائِمًا لَا تُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ وَٱلنَّصِيبِ. وَكَانَتْ دَائِمًا تَتَحَدَّى سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ."

قَالَ لَـهَا سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ: "هُنَاكَ شَابٌّ وَسِيمٌ وَمِنْ عَائِلَةٍ غَنِيَّةٍ سَوْفَ يُقَابِلُ فَتَاةَ أَحْلَامِهِ فِي بِلَادٍ غَيْرِ بِلَادِهِمْ. يَقَعُ فِي غَرَامِهَا وَيُحِبُّهَا."

قَالَتْ لَهُ: "أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْنَعَهُمْ مِنْ هٰذَا ٱلزَّوَاجِ."

قَالَ لَهَا: "حَسَنًا، سَأَتْرُكُكِ تَفْعَلِينَ مَا تُرِيدِينَ، وَهَا هِيَ ٱلْأَيَّامُ بَيْنَنَا، نَتَقَابَلُ هُنَا، نَعُودُ وَنَلْتَقِي وَأَعْرِفُ مَاذَا فَعَلْتِ."

قُلْتُ: "مَاذَا تَعْتَقِدُ، أَيُّهَا ٱلْجَارُ ٱلْحَبِيبُ، فَعَلَتِ ٱلْعَنْقَاءُ كَيْ تَمْنَعَ وُقُوعَ ٱلْقَضَاءِ وَٱلْقَدْرِ؟"

لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ، وَكَعَادَتِي بَعْدَ ٱلسُّؤَالِ مُتَابَعَةُ ٱلْحَدِيثِ: "مَاذَا فَعَلَتِ ٱلْعَنْقَاءُ تُجَاهَ هٰذَا ٱلتَّحَدِّي؟ طَارَتِ ٱلْعَنْقَاءُ إِلَى مَكَانِ مَوْلِدِ تِلْكَ ٱلْفَتَاةِ وَبَقِيَتْ بِجِوَارِ مَنْزِلِهَا حَتَّى عَرَفَتْ

بِمَوْلِدِهَا. فَقَامَتِ ٱلْعَنْقَاءُ بِاخْتِطَافِ ٱلْبِنْتِ مِنْ أَهْلِهَا وَٱلتَّحْلِيقِ بِـهَا بَعِيدًا مِنْ فَوْقِ جَزِيرَةٍ لَا يُوجَدُ بِهَا بَشَرٌ. ثُمَّ حَلَقَتْ بِهَا إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ وَبَنَتْ لَـهَا عِشًّا لِكَيْ تَعِيشَ فِيهِ. وَبِالْفِعْلِ عَاشَتِ ٱلْفَتَاةُ فَوْقَ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ لِسَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ مَعَ ٱلْعَنْقَاءِ. وَكَانَتِ ٱلْعَنْقَاءُ كُلَّ يَوْمٍ تَحْضُرُ مَجْلِسَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ."

ثُمَّ تَوَقَّفْتُ عَنْ سَرْدِ ٱلْحِكَايَةِ وَٱلْأَمِيرَةُ تَبْتَسِمُ وَٱلْجَارُ يَنْتَظِرُ. وَقُلْتُ لِلْجَارِ ٱلطَّيِّبِ: "مَاذَا تَعْتَقِدُ حَدَثَ؟" كَـعَادَتِهِ لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَكَـعَادَتِي تَابَعْتُ سَرْدَ ٱلْحِكَايَةِ:

"هٰكَذَا يَوْمًا مَا حَدَثَ شَيْءٌ غَرِيبٌ. قَدْ ضَلَّتْ سَفِينَةٌ طَرِيقَهَا وَكَانَ عَلَى مَتْنِ هٰذِهِ ٱلسَّفِينَةِ ٱبْنُ ٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي نَزَلَ مِنْ عَلَى ٱلسَّفِينَةِ لِكَيْ يَسْتِكْشِفَ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ، لٰكِنَّهُ تَفَاجَأَ بِفَتَاةٍ جَمِيلَةٍ لَا تَعْرِفُ ٱلْكَلَامَ، تُتْقِنُ فَقَطْ لُغَةَ ٱلْإِشَارَةِ. وَظَلَّ يَتَوَاصَلُ مَعَهَا بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ حَتَّى أُعْجِبَ بِهَا وَأَثَارَتْ فُضُولَهُ. تِلْكَ كَانَتِ ٱلْبِدَايَةُ... كَانَ يَقْضِي مَعَهَا أَوْقَاتًا كَثِيرَةً وَيَتْرُكُهَا عِنْدَ قُرْبِ مَجِيءِ ٱلْعَنْقَاءِ. وَذَاتَ يَوْمٍ ٱتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَخْتَبِئَ دَاخِلَ بَطْنِ جِيفَةٍ مُلْقَاةٍ عَلَى سَطْحِ ٱلسَّفِينَةِ. وَحِينَ أَتَتِ ٱلْعَنْقَاءُ

وَجَدَتْهَا تَبْكِي فَسَأَلَتْهَا: "لِمَاذَا تَبْكِينَ؟" قَالَتْ لَـهَا: "أَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ." فَقَالَتِ ٱلْعَنْقَاءُ: "مَاذَا أَفْعَلُ لِكَيْ لَا تَشْعُرِي بِالْوَحْدَةِ؟" فَأَشَارَتْ لَـهَا أَنْ تُحْضِرَ لَـهَا ٱلْجِيفَةَ أَلْمُلْقَاةَ عَلَى سَطْحِ ٱلسَّفِينَةِ كَيْ تُؤَانِسَ بِهَا وَحْدَتَهَا. فَذَهَبَتِ ٱلْعَنْقَاءُ وَأَحْضَرَتْهَا. حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ أَمَرَ فِيهَا سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ بِجَمْعِ كُلِّ ٱلْمِلْكِ: ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْإِنْسِ وَٱلْجِنِّ وَٱلطُّيُورِ، وَسَأَلَ عِنْدَهَا ٱلْعَنْقَاءَ: "مَاذَا فَعَلْتِ فِيمَا كَانَ بَيْنَنَا مِنِ ٱتِّفَاقٍ؟"

قَالَتْ: "فَـرَقْتُ بَيْنَهُمَا."

فَقَالَ لَـهَا: "أَحْضِرِي ٱلْفَتَاةَ."

فَلَمَّا ذَهَبَتْ إِلَى ٱلْفَتَاةِ قَالَتْ لَـهَا: "تَعَالَيْ مَعِي."

قَالَتْ: "كَـيْفَ تَحْمِلِينَنِي؟"

قَالَتِ ٱلْعَنْقَاءُ: "فِي فَمِي."

قَالَتْ: "لَا، أَخَافُ أَنْ أَسْقُطَ مِنْكِ. سَأَدْخُلُ أَنَا

فِي دَاخِلِ ٱلْجِيفَةِ وَتَحْمِلِينَنِي."

عِنْدَهَا وَافَقَتِ ٱلْعَنْقَاءُ وَحَمَلَتْهَا وَهِيَ فِي دَاخِلِ ٱلْجِيفَةِ وَحَلَقَتْ بِهَا حَتَّى وَصَلَتْ مَجْلِسَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ فَأَخْرَجَتِ ٱلْفَتَاةَ. فَسَأَلَهَا سُلَيْمَانُ عَنِ ٱبْنِ ٱلْمَلِكِ، فَأُخْرِجَ مِنْ دَاخِلِ ٱلْجِيفَةِ.

فَقَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ: "لَمْ تَسْتَطِيعِي مَنْعَ ٱلْقَدْرِ." مِنْ يَوْمِهَا عُوقِبَتِ ٱلْعَنْقَاءُ بِمَنْعِهَا بِالِاخْتِلَاطِ بِبَاقِي ٱلطُّيُورِ.

تَبَسَّمَ ٱلرَّجُلُ وَقَالَ: "هَلْ حَقًّا تَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلْقَدْرَ ٱلَّذِي جَمَعَ بَيْنَنَا أَمْ فِعْلُ ٱلْخَيْرِ لِنَجَاةِ ٱلْعُصْفُورِ

وَٱلْعَطْفُ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلْخَطْفِ وَحُزْنُهُ ٱلْعَمِيقُ عَلَى ٱلصِّغَارِ؟"

كَانَ ٱلظَّلَامُ يَفْرُشُ ٱلْمَكَانَ وٱلْعَتَمَةُ تَبُوحُ بِالْأَسْرَارِ. أَلْأَمِيرَةُ بِجَانِبِي طِوَالَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْآنَ بِدَايَةُ ٱللَّيْلِ وَنَحْنُ مَعًا. لَا أَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا. تُرَافِقُنِي فِي تَحَرُّكَاتِي كَـظِلِّي. جَمَعَنَا ٱلْعُصْفُورُ ٱلْمَكْسُورُ ٱلْخَاطِرِ وَمَأْسَاةُ خَرَابِ ٱلْعِشِّ وَفُقْدَانِ ٱلصِّغَارِ. رُبَّمَا كَانَ ٱلْغُرَابُ... مَنْ يَعْرِفُ؟

قُلْتُ لِلْجَارِ عَلَى مَسْمَعِ ٱلْأَمِيرَةِ: "وَلِقَائِي بِالْأَمِيرَةِ؟"

نَظَرَ ٱلْجَارُ وَٱلْحِيرَةُ تَسْبُقُ كَلِمَاتِهِ: "أَلَيْسَ بَيْنَكُمْ سَابِقُ مَعْرِفَةٍ؟"

أَلْأَمِيرَةُ: "لَا. وَدَدْتُ أَنْ أَحْكِيَ لَهُ حِكَايَتِي، وَلٰكِنْ كَمَا تَمَّ خَطْفُ ٱلصِّغَارِ مِنْ بَيْتِهِمْ، خَطَفَ ٱلْعُصْفُورُ ٱنْتِبَاهَ هٰذَا ٱلرَّجُلِ وَٱنْشَغَلْنَا بِحِكَايَةِ ٱلْعُصْفُورِ، وَلَمْ أَقُصَّ عَلَيْهِ بَعْدُ حِكَايَتِي."

تَلَعْثَمَتْ كَلِمَاتُ ٱلْجَارِ مِنْ صَدْمَةِ ٱلْمُفَاجَأَةِ وَبِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ ٱبْتَعَدَتِ ٱلْخُطُوَاتُ. إِبْتَعَدَ عَنَّا كَثِيرًا حَتَّى غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا.

نَظَرْتُ بِحَرَكَةٍ لَا إِرَادِيَّةٍ نَحْوَ ٱلْأَمِيرَةِ.

نَظَرَتْ صَوْبِي كَلَمْحِ ٱلْبَرْقِ وَدَخَلَتْ فِي جَوْفِ ٱلْحِكَايَةِ وَغَابَتْ.

أَللَّيْلُ، أَلْعَتَمَةُ بِغِلَافٍ وَرَقِيٍّ أَسْوَدَ تَلُفُّ أَرْجَاءَ ٱلْمَكَانِ. لَا أُبْصِرُ أَمَامِي أَحَدًا. أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَأُغَادِرُ ٱلْمَكَانَ.

أَعُودُ ٱلْآنَ إِلَى بَيْتِي. أَوَدُّ أَنْ أَنَامَ، رَأْسِي مُثَقَّلٌ بِقِصَصِ ٱلْغُرَبَاءِ ٱلَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ٱلْمَسْكَنَ، حَتَّى ٱلْعَصَافِيرُ.

بِالرَّغْمِ مِنْ بُطْءِ خُـطُوَاتِي وَصَلْتُ إِلَى بَيْتِي. أَضَعُ فِي ٱلْقَفْلِ ٱلْمِفْتَاحَ، أَشْعُرُ بِهَزَّةٍ تَجْتَاحُنِي، أَلْبَابُ لَيْسَ مُقَفَّلًا. لَا يُمْكِنُ! بِيَدِي أَحْكَمْتُ ٱلْإِغْلَاقَ. أَلصَّوْتُ يَأْتِي مِنَ ٱلدَّاخِلِ: "لِمَاذَا كُلُّ هٰذَا ٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْعَوْدَةِ؟"

هِيَ هُنَا فِي بَيْتِي. سَبَقَتْنِي، وَأَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أَجْمَعَ شَتَاتَ أَفْكَارِي.

قُلْتُ: "مَنْ أَنْتِ؟"

قَالَتْ: "أَنَا ٱلْأَمِيرَةُ ٱلَّتِي تَوَدُّ أَنْ تَحْكِيَ ٱلْحِكَايَةَ. أَلَمْ تَحْكِ لِي حِكَايَةَ ٱلْعَنْقَاءِ ٱلَّتِي تُولَدُ

وَتَعُودُ كُلَّ أَلْفِ سَنَةٍ؟ أَمَّا ٱلْحِكَايَةُ حِينَ تَنْتَهِي تَبْدَأُ.

تَقُولُ ٱلْحِكَايَةُ: هٰكَذَا؛ هُنَاكَ بَعِيدًا فِي بِلَادِ ٱلشَّرْقِ ٱلسَّعِيدِ ٱلْبَعِيدِ تُفْتَحُ بَوَّابَةُ ٱلسَّمَاءِ ٱلضَّخْمَةُ وَتَسْكُبُ ٱلشَّمْسُ نُورَهَا مِنْ خِلَالِهَا. وَتُوجَدُ خَلْفَ ٱلْبَوَّابَةِ شَجَرَةٌ دَائِمَةُ ٱلْخُضْرَةِ. أَلْمَكَانُ كُلُّهُ جَمَالٌ، لَا تَسْكُنُهُ أَمْرَاضٌ وَلَا شَيْخُوخَةٌ وَلَا مَوْتٌ وَلَا أَعْمَالٌ رَدِيئَةٌ وَلَا خَوْفٌ وَلَا حُزْنٌ. وَفِى هٰذَا ٱلْبُسْتَانِ يَسْكُنُ طَائِرٌ وَاحِدٌ فَقَطْ – أَلْعَنْقَاءُ ذَاتُ ٱلْمِنْقَارِ ٱلطَّوِيلِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَٱلرَّأْسِ ٱلَّذِي تُزَيِّنُهُ رِيشَتَانِ

مُمْتَدَّتَانِ إِلَى ٱلْخَلْفِ. وَعِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ ٱلْعَنْقَاءُ تَبْدَأُ فِي تَرْدِيدِ أُغْنِيَةٍ بِصَوْتٍ رَائِعٍ."

قُلْتُ: "فَهِمْتُ، وَمَا عَلَاقَتِي بِالْحِكَايَةِ وَكُلُّ ٱنْشِغَالِي فِي عُصْفُورِي وَكَيْفَ أَبْعَثُ ثَانِيَةً فِي قَلْبِهِ ٱلْحَيَاةَ وَٱلتَّغْرِيدَ وَٱلْعَيْشَ ٱلرَّغِيدَ؟"

إِبْتَسَمَتْ وَغَيَّرَتْ مَقْعَدَهَا وَهَزَّتْ رَأْسَهَا بِسُخْرِيَّةٍ وَقَالَتْ: "أَنْتُمُ ٱلْبَشَرُ تَعِيشُونَ مُنْذُ آلَافِ ٱلسِّنِينَ فِي قَلْبِ حِكَايَةِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، وَٱلْحِكَايَةُ تَعُودُ وَتُولَدُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ جَدِيدٍ كَطَائِرِ ٱلْعَنْقَاءِ."

قُلْتُ: "سَيِّدَتِي ٱلأَمِيرَةَ، حِكَايَتُكِ غَرِيبَةٌ عَجِيبَةٌ كَـتَاجِ طَائِرِ ٱلْـهُدْهُدِ."

قَالَتْ: "إِسْمَعِ ٱلْبَقِيَّةَ. هٰكَذَا بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ أَرَادَتِ ٱلْعَنْقَاءُ أَنْ تُولَدَ ثَانِيَـةً، فَتَرَكَتْ مَـوطِـنَهَا وَسَـعَـتْ صَـوْبَ هٰـذَا ٱلْعَالَمِ. وٱتَّجَهَتْ إِلَى ٱلشَّـرْقِ وَٱخْتَارَتْ نَخْلَةً شَاهِقَةَ ٱلْعُلُوِّ لَـهَا قِمَّةٌ تَصِلُ إِلَى ٱلسَّمَـاءِ، وَبَنَتْ لَـهَـا عِـشًّا. بَعْـد ذٰلِكَ تَمُـوتُ فِي ٱلنَّارِ، وَمِنْ رَمَادِهَا يَخْرُجُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ، دُودَةٌ لَـهَـا لَـوْنٌ كَـاللَّبَـنِ تَتَحَـوَّلُ إِلَـى شَـرْنَقَـةٍ، وَتَخْـرُجُ مِـنْ هٰـذِهِ ٱلشَّـرْنَقَـةِ عَـنْقَاءُ جَـدِيدَةٌ تَطِـيرُ عَـائِدَةً إِلَـى مَوْطِـنِهَا ٱلأَصْلِيِّ

وَتَحْمِلُ كُلَّ بَقَايَا جَسَدِهَا ٱلْـقَدِيمِ إِلَى مَذْبَحِ ٱلشَّمْسِ فِي هِلْيُوبُولِيس فِي مِـصْــرَ."

قُلْتُ: "حَقّـًا، إِنَّ ٱلْأَقْدَارَ لَا مَفَرَّ مِنْهَا مَهْمَا فَعَلْنَا. أَلْـكَوْنُ بِيَدِ ٱلْخَالِقِ، وَٱلْحِكَايَةُ تَعُودُ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَأَوَانٍ، وَٱلْقَضَاءُ وَٱلْقَدْرُ وَٱلْعُمْرُ ٱلْمَحْتُومُ. وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكِيمٌ."

قَالَتْ: "قَبْلَ أَنْ نَفْتَرِقَ، يَا صَدِيقِي، وَقَبْلَ أَنْ أَحْكِيَ حِكَايَتِي ٱلَّتِي هَبَطَتْ عَلَيْكَ مِنْ عَلْيَاءِ ٱلسَّمَاءِ، أَوَدُّ مِنْ كُلِّ قَلْبِي وَشَوْقِي سَمَاعَ حِكَايَةِ تَاجِ ٱلْـهُدْهُدِ، وَكَانَ ٱلرَّفِيقَ ٱلصَّادِقَ ٱلأَمِينَ لِسَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ ٱلْحَكِيمِ مَدَى ٱلدَّهْرِ."

قُلْتُ: "إِسْمَعِي، يَا أَمِيرَتِي ٱلْخَالِدَةَ فِي ٱلْحِكَايَاتِ، حِكَايَةَ تَاجِ ٱلْهُدْهُدِ ٱلذَّهَبِيِّ وَمَا حَدَثَ. فِي أَحَدِ ٱلْأَيَّامِ خَرَجَ ٱلْمَلِكُ سُلَيْمَانُ قَاصِدًا بَيْتَهُ ٱلَّذِي فِي ٱلصَّحْرَاءِ. فِي مُنْتَصَفِ ٱلطَّرِيقِ أَصَابَتْهُ حُمَّى (سُخُونَةٌ) شَعَرَ عَلَى أَثْرِهَا بِتَعَبٍ شَدِيدٍ وَسَقَطَ بِسَبَبِهَا عَلَى ٱلْأَرْضِ. نَظَرَ ٱلْمَلِكُ حَوْلَهُ بَاحِثًا عَمَّنْ يُسْعِفُهُ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ. فَجْأَةً نَزَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ سِرْبٌ مِنْ طُيُورِ ٱلْهُدْهُدِ. عِنْدَمَا شَاهَدَتِ ٱلْهَدَاهِدُ ٱلْمَلِكَ ٱلَّذِي يَغْلِي جِسْمُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْحُمَّى ٱقْتَرَبَتْ مِنْ رَأْسِهِ وَأَخَذَتْ تُرَفْرِفُ فَوْقَهُ

بِأَجْنِحَتِهَا بِقُوَّةٍ حَتَّى بَرُدَ جِسْمُ ٱلْمَلِكِ وَٱسْتَعَادَ قُوَّتَهُ وَوَقَفَ عَلَى رِجْلَيْهِ.

قَالَ ٱلْمَلِكُ سُلَيْمَانُ لِلْـهَدَاهِدِ: "أَنْتُمْ أَنْقَذْتُمْ حَيَاتِي، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُكَافِئَكُمْ عَلَى ذٰلِكَ. أُطْلُبُوا كُلَّ مَا تُرِيدُونَ وَسَأُلَبِّي طَلَبَكُمْ."

طَلَبَتِ ٱلْـهَدَاهِدُ يَوْمًا لِلتَّشَاوُرِ لِكَيْ تُقَرِّرَ مَا هِيَ ٱلْمُكَافَأَةُ ٱلَّتِي تَطْلُبُهَا مِنَ ٱلْمَلِكِ.

فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي جَاءَتْ مَلِكَةُ ٱلْـهَدَاهِدِ وَمَثَلَتْ أَمَامَ ٱلْمَلِكِ.

سَأَلَـهَا ٱلْمَلِكُ: "هَلْ فَكَرْتُمْ جَيِّدًا، وَهَلْ تَوَصَّلْتُمْ إِلَى قَرَارٍ؟ وَمَا هُوَ؟"

أَجَابَتْ مَلِكَةُ ٱلْـهَدَاهِدِ: "نَعَمْ، جَلَالَةَ ٱلْمَلِكِ، لَقَدْ فَكَّـرْنَا جَيِّدًا، وَنَحْنُ نَطْلُبُ أَنْ تَتَلَأْلَأَ عَلَى رُؤُوسِـنَا قَنَازِعُ ذَهَبِيَّةٌ."

قَالَ لَـهَا ٱلْمَلِكُ سُلِيْمَانُ: "أَنَا سَأُلَبِّي طَلَبَكُمْ، وَلٰكِنِ ٱعْلَمُوا أَنَّ هٰذِهِ ٱلتِّيجَانَ سَتُسَبِّبُ لَـكُمُ ٱلْمَصَائِبَ. وَإِذَا قَـرَّرْتُمْ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّـكُمْ لَا تُرِيدُونَهَا، عُودُوا إِلَيَّ لِكَيْ أُسَاعِدَكُمْ."

خَرَجَتْ مَلِكَةُ ٱلْـهَدَاهِدِ مِنْ لِقَائِهَا مَعَ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ وَقَدْ تَلَأْلَأَتْ عَلَى رَأْسِهَا وَعَلَى رُؤُوسِ جَمِيعِ ٱلْـهَدَاهِدِ قَنَازِعُ ذَهَبِيَّةٌ.

مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ شَعَرَتِ ٱلْهَدَاهِدُ بِأَنَّهَا مُتَمَيِّزَةٌ جِدًّا وَرَاحَتْ تَمْشِي بِكُبْرَيَاءَ فَخُورَةً بِقَنَازِعِهَا ٱلذَّهَبِيَّةِ وَبِجَمَالِهَا ٱلْجَدِيدِ. وَكَانَتْ تَتَوَقَّفُ عِنْدَ كُلِّ أُنْقُوعَةٍ أَوْ بِئْرٍ وَتَتَمَعَّنُ فِي صُوَرِهَا ٱلْمُنْعَكِسَةِ فِي ٱلْمَاءِ.

فِي أَحَدِ ٱلأَيَّامِ شَاهَدَ صَيَّادُ ٱلْقَنَازِعَ ٱلذَّهَبِيَّةَ ٱلْجَدِيدَةَ ٱلَّتِي عَلَى رُؤُوسِ ٱلْهَدَاهِدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: "عَلَيَّ أَنْ أُمْسِكَ بِهَا وَأَنْ آخُذَ هٰذَا ٱلذَّهَبَ لِنَفْسِي."

تَعَقَّبَ ٱلصَّيَّادُ ٱلْهَدَاهِدَ وَلَاحَظَ أَنَّهَا تَتَمَعَّنُ

طِوَالَ ٱلْيَوْمِ فِي صُوَرِهَا ٱلْمُنْعَكِسَةِ فِي ٱلْمَاءِ وَتَـزْهُو بِنَفْسِهَا.

قَـرَّر ٱلصَّيَّادُ أَنْ يَصْطَادَهَا بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ. وَضَعَ مَرَايَا صَغِيرَةً بَيْنَ ٱلْأَشْجَارِ وَبِجَانِبِهَا وَضَعَ مَصَائِدَ مَخْفِيَّةً. شَـاهَدَتِ ٱلْـهَدَاهِدُ ٱلْمَرَايَا وَأَسْرَعَتْ لِتَتَمَعَّنَ فِي صُوَرِهَا، لٰـكِنَّهَا عِنْدَمَا ٱقْتَرَبَتْ وَقَعَتْ فِي ٱلْمَصِيدَةِ.

هٰكَذَا بَدَأَتِ ٱلْـهَدَاهِدُ تُصْطَادُ ٱلْوَاحِدَ تِلْوَ ٱلآخَرِ. إِنْتَـزَعَ ٱلصَّيَّادُ ٱلذَّهَبَ مِنْ رُؤُوسِ ٱلْـهَدَاهِدِ وَأَسْرَعَ لِيَبِيعَـهُ لِلصَّائِغِ.

سَمِعَ جِيرَانُ ٱلصَّيَّادِ عَنِ ٱلْقَنَازِعِ ٱلذَّهَبِيَّةِ وَرَاحُوا هُمْ أَيْضًا يَصْطَادُونَ ٱلْهَدَاهِدَ وَيَنْتَزِعُونَ ٱلذَّهَبَ مِنْ رُؤُوسِهَا.

عِنْدَهَا ٱحْتَارَتِ ٱلْهَدَاهِدُ إِلَى أَيْنَ تَهْرُبُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلَّذِينَ يُحَاوِلُونَ ٱصْطِيَادَهَا. لَاحَظَتْ مَلِكَةُ ٱلْهَدَاهِدِ ٱلْمَصَائِبَ ٱلَّتِي حَلَّتْ بِهَا، وَعِنْدَهَا تَذَكَّرَتْ وَعْدَ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ لَهَا. ذَهَبَتْ إِلَى قَصْرِهِ وَقَصَّتْ لَهُ كُلَّ مَا حَدَثَ مُنْذُ طَلَبَتْ مِنْهُ ٱلْقَنَازِعَ ٱلذَّهَبِيَّةَ.

أَشْفَقَ ٱلْمَلِكُ سُلَيْمَانُ كَثِيرًا عَلَى ٱلْهَدَاهِدِ وَقَالَ لِمَلِكَتِهَا: "حَقًّا، لَقَدْ جَلَبَ لَكُمُ ٱلطَّلَبُ

ٱلَّذِي طَلَبْتُمُوهُ ٱلْمَصَائِبَ. لَقَدْ كُنْتُمْ أَغْبِيَـاءَ مُتَعَجْرِفِينَ، لٰـكِنِّي مَا زِلْتُ أَذْكُـرُ أَنَّـكُمْ أَنْقَذْتُمْ حَيَاتِي، وَلِذٰلِكَ سَأُعْـطِيكُمْ بَدَلَ ٱلْقَنَازِعِ ٱلذَّهَبِيَّةِ قَنَازِعَ مِنَ ٱلرِّيش."

خَرَجَتْ مَلِكَـةُ ٱلْـهَدَاهِدِ مِنْ قَصْرِ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ وَعَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنَ ٱلرِّيشِ. وَمُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ لَمْ يُحَاوِلِ ٱلصَّيَّادُونَ ٱلْإِمْسَاكَ بِالْـهَدَاهِدِ.

بَعْدَ أَنْ طَارَ ٱلنَّوْمُ وَغَابَ عَنِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلْبَالِ وَأَصْبَحْتُ مَعَ ٱلْأَمِيرَةِ دَاخِلَ ٱلْحِكَايَةِ.

قَالَتْ: "إِجْلِسْ وَٱرْتَحْ. حِكَايَةُ ٱلتَّاجِ وَٱلرِّيشِ لِلْـهُدْهُدِ مِنْ أَجْلِ ٱلْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، إِسْمَعْ، وَمِمَّا يُزْعَمُ أَنَّ ٱلتَّاجَ ٱلَّذِي عَلَى رَأْسِ ٱلْـهُدْهُدِ إِنَّمَا جَاءَهُ بِسَبَبِ بِـرِّهِ بِأُمِّهِ. فِمِمَّا يُحْكَى أَنَّ أُمَّهُ كَبِرَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ يَجْلِبُ لَـهَا ٱلطَّعَامَ وَٱلشُّرْبَ، فَلَمَّا مَاتَتْ أَرَادَ ٱلرَّحِيلَ فَـكَانَ يَحْمِلُ عِظَامَ أُمِّهِ فَوْقَ رَأْسِهِ؛ فَـكَافَأَهُ ٱللّٰهُ بِهٰذَا ٱلتَّاجِ جَزَاءً لِـبِرِّهِ بِأُمِّهِ."

قُلْتُ: "أَلْآنَ، أَمِيرَتِي، مَاذَا تَعْتَقِدِينَ حَلَّ بِالْعُصْفُورِ وَبِالْحِكَايَةِ؟"

أَلْأَمِيرَةُ: "أَعِدْ عَلَى مَسْمَعِي قِصَّةَ ٱلنَّسْرِ مَعَ

سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ وَسَوْفَ أُتَمِّمُ لَكَ بَقِيَّةَ ٱلْحِكَايَةِ."

قُلْتُ: "قَبْلَ حِكَايَتِكِ ٱلْحَزِينَةِ، حِكَايَةِ ٱلنَّسْرِ، أَخَذَنِي هٰذَا ٱلنَّسْرُ عَالِيًا، كَأَنَّهُ يُرَفْرِفُ ٱلْآنَ فَوْقَ رَأْسِي، وَهُوَ يَدُلُّ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ إِلَى مَكَانٍ يَرْتَاحُ فِيهِ."

أَلْأَمِيرَةُ: "شَوَّقْتَنِي لِإِعَادَةِ ٱلَحِكَايَةِ، وَهٰكَذَا مَا ٱبْتَعَدْنَا عَنْ عُصْفُورِكَ ٱلْحَزِينِ وَهِيَ حِكَايَتِي ٱلَّتِي تُشْبِهُ حِكَايَاتِ ٱلْأَمَلِ لِلْعَيْشِ فَوْقَ كَـوْكَبِ ٱلْأَرْضِ بِسَلَامٍ."

قُلْتُ: "تَقُولُ حِكَايَةُ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ وَٱلنَّسْرِ، يَا

أَمِيرَتِي ٱلسَّاكِنَةَ قَلْبَ ٱلْحِكَايَاتِ، إِنَّ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمًا لِلنُّزْهَةِ - وَقَدْ عَلَّمَهُ ٱللّٰهُ مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ وَجَعَلَهُ مَلِكًا عَلَيْهِ - فَقَالَ لِلنَّسْرِ: "طِرْ أَيُّـهَا ٱلنَّسْرُ، وَٱبْحَثْ لَنَا عَنْ أَجْمَلِ بُقْعَةٍ تَرَاهَا ٱلْعَيْنُ لِنَذْهَبَ إِلَيْهَا فَنُرَوِّحُ عَنْ أَنْفُسِنَا."

قَالَ ٱلنَّسْرُ: "سَمْعًا وَطَاعَةً يَا مَوْلَايَ."

ثُمَّ طَارَ مُحَلِّقًا فِي ٱلْجَوِّ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ عَادَ يَقُولُ: "لَقَدْ وَجَدْتُ ٱلْمَكَانَ ٱلْمَنْشُودَ، وَهُوَ أَجْمَلُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَايَ، فَهَلْ يَتَفَضَّلُ سَيِّدِي وَيَسِيرُ مَعِي لِأَدُلَّهُ عَلَيْهِ؟"

وَخَرَجَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مُسْتَنْقَعٍ كَبِيرٍ قَامَتْ بِجَانِبِهِ دَوْحَةٌ ضَخْمَةٌ قَالَ ٱلنَّسْرُ: "هٰذَا هُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي أَعْنِيهِ."

قَالَ سُلَيْمَانُ: "عَجَبًا، أَتَزْعَمُ أَنَّ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ هُوَ أَجْمَلُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاكَ؟"

قَالَ ٱلنَّسْرُ: "نَعَمْ، يَا مَوْلَايَ، فَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي

وُلِدْتُ فِيهِ وَتَحْتَ سَمَائِهِ نَشَأْتُ، إِنَّهُ وَطَنِي."

قَالَتِ ٱلْأَمِيرَةُ: "بَعْدَمَا ٱسْتَأْنَسَ ٱلْعُصْفُورُ فِي بَيْتِهِ ٱلْخَشَبِيِّ بَدَأَ بِبِنَاءِ ٱلْعِشِّ لِلْمَوْسِمِ ٱلْقَادِمِ.

وَٱلْآنَ، بَعْدَ مَا قَصَصْتُ عَلَيْكَ قِصَّةَ ٱلْعُصْفُورِ أَعُودُ إِلَى مَوْطِنِي أَرْضِ ٱلْحِكَايَاتِ، وَسُلَيْمَانُ ٱلْحَكِيمُ يَعُودُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ ٱلْوَاسِعَةِ، وَأَنْتَ تَعُودُ بِقِصَّتِي بَيْتِ ٱلْعُصْفُورِ لِلْعَالَمِ. لَقَدْ قَضَيْنَا يَوْمًا شَاقًّا وَطَوِيلًا بَيْنَ ٱلْأَمَلِ وَٱلْخَيْبَةِ وَعَلَيْنَا أَنْ نُغْلِقَ ٱلْكِتَابَ وَنَنَامَ."

وهيب نديم وهبة:

شاعر وكاتب من قرية دالية الكرمل، من مواليد عام 1952.

عمل في مجال التدريس.

يكتب الشعر والمسرحيات وأدب الشباب.

الإصدارات الإبداعية التي صدرت حتى عام 2024 أكثر من 50 كتابًا.

حصل على جوائز محلية وعالمية.

نشرت عنه العديد من الدراسات الأكاديمية والمقالات النقدية حول أعماله. وقد ترجمت كتبه وقصائده إلى العديد من اللغات.

البريد الإلكتروني للمؤلف:
w.wahib@gmail.com